# الكتاب.. المشئوم!

زهيرة البيلى

**تلقت السكرتارية العامة للانتربول رسالة كتبت بالشفرة.. إنها رموز على شريط مثقب.. وبنظراته تابع العامل هذه الثقوب الصغيرة التى تحكى القصة المؤلمة فى عبارات موجزة موزونة.**

أوتوبيس رحلات يحمل ستة وعشرين طفلا فى طريقهم من سويسرا للنمسا، لقضاء يوم العطلة. ونقطة الحدود سجلت دخول هذا الأوتوبيس للنمسا. حيث كان من المفروض أن يتناول الأطفال طعام الإفطار.. ولم يشر إلى وقوع أى حادث على الطريق.. لذلك شك رجال البوليس فى أنها يمكن أن تكون عملية اختطاف مدبرة. فتحركوا على الفور لجمع المعلومات اللازمة أولا عن الأوتوبيس ذى اللون الأبيض والذى يتبع شركة نقل معروفة ومعلومات عن السائق الذى كان من أصل أيرلندى وطبقا للمعالم الجغرافية فى هذه المنطقة افترض البوليس أن السائق يمكن أن يكون قد ضل الطريق. فوجد نفسه فى ألمانيا أو أيطاليا. أو أنه اضطر الى العودة ثانيا إلى سويسرا. ومع هذه الافتراضات أعلن المكتب الوطنى لانتربول زيورخ، عدم خروج الأوتوبيس من الحدود النمساوية.

وبعد أن تلقى الانتربول الرسالة التى كتبت بالشفرة. اسرعت فرقة من رجال البوليس لتوضيح نقط الاستفهام عن اختفاء أوتوبيس يحمل ستة وعشرين طفلا، بسائقه وعملية اختطاف بدون شك خرجت عن المألوف.. وهل هى محاولة اغتيال سياسية الطابع ؟! دقت أجراس التليفونات وفى أماكن عديدة متفرقة من سويسرا حتى روما.. وقام بوليس النمسا بعمليات البحث على الفور. كما ركز الانتربول جهوده لجمع المعلومات اللازمة عن الأوتوبيس وركابه.

وكانت المعلومات الكاملة عن الركاب كالآتى: ستة وعشرون طفلا تتراوح أعمارهم بين الثانية والسادسة عشرة أبناء وبنات، وعمال يعملون فى قطع الماس، إذن فهم من طبقة اجتماعية بسيطة. وقد نظموا رحلة لقضاء العطلة بالقرب من الحدود النمساوية على شاطئ إحدى البحيرات.. سافر الأطفال فى الساعة الثامنة من نفس الصباح، وكان فى انتظارهم لتناول طعام الإفطار مرشد شاب، اهتم أساسا بتنظيم هذه الرحلة. وفى الوقت المحدد، وكان الساعة العاشرة، لم يصل الأوتوبيس. وفى الساعة الحادية عشرة اتصل المرشد الشاب من كوخ وسط الغابة حيث كان ينتظر مجموعة الأطفال تليفونيا بمعسكر الرحلات. فعلم أن الأوتوبيس سافر فى موعده المحدد. وظل الاتصال بالمعسكر مستمرا حتى الظهر بحثا عن أى أخبار جديدة، وهنا بدأ المسئولون فى المعسكر يشكون فى الأمر، وفى احتمال وقوع حادث أجبر السائق على التأخير عن موعد الإفطار. لكنه حتى مع هذا الافتراض كان لابد أن يصل السائق فى الساعة الواحدة على الأكثر.. وبعد أن خيم الغموض حول الأوتوبيس الأبيض طلب المعسكر من المرشد الاتصال بالبوليس النمساوى، الذى قام على الفور بدوريات على الطريق، وعلى نفس خط سير الأوتوبيس، مبتدئا بنقطة الحدود. وعلى طول الطريق الذى يبلغ حوالى ١٢٠ كيلو مترا لم تسجل أية حادثة أو عطل. حتى المطاعم المنتشرة لم تستقبل هؤلاء الأطفال.

ولكى تتم عمليات البحث فى الطرق الجانبية، قامت طائرة هليكوبتر بفحص المنحدرات والطرق الجبلية الوعرة العديدة. لكن التحريات عن السائق نفسه لم تسفر عن شئ إذ انه يتمتع بسمعة طيبة.. ومع ذلك وزعت صوره على الفور على كل أقسام البوليس.. يبدو فيها الرجل لطيفا. وجهه دائرى، وعيناه ضيقتان. وشعره أسود يزحف حتى الجبهة. ويبدو عليه الاجتهاد والمرح.

ظلت السكرتارية العامة للانتربول تتلقى على اللوحة المعدنية المعلومات التى تبعث بها مكاتب الدول الأجنبية. فليس من اختصاصها التدخل فى شئون بوليس الأجانب. ولكن المهم أن تعرف إذا كان الأمر يتعلق بعملية سياسية أولا.. وهذا يحدد بالطبع موقف الانتربول. لكنه حتى هذه اللحظة لم يكن للمختصين رأى محدد. فالوقت ما زال ضيقا، ولم تستحدث أية معلومات. والافتراض الوحيد يؤكد أن هناك علاقة غامضة بين العمليات ذات الطابع السياسى أو العسكرى وعمليات الاختطاف والمطالبة بالفدية.

أما المشكلة الأساسية فتكمن فى نوعية هؤلاء الذين يطالبون بفدية مقابل ستة وعشرين طفلا من أبناء عمال بسطاء، عمال يعملون حقيقة فى قطع الماس، ولكن لايملكونه. فلو كان المختطفون يعلمون جيدا نوعية الذين يتعاملون معهم لاختاروا بدون شك غير هؤلاء الأطفال. خاصة أن صفة الجماعية هنا لاتخدمهم على الإطلاق. كما أن اختيار عمال الماس بالذات لايمكن أن يكون محض الصدفة.

تسرب الحادث إلى الإذاعة والتليفزيون. وانتشر بعد أخبار الفترة المسائية فى النمسا وسويسرا وخاصة بلجيكا. وانزعجت الحكومات المعنية والسفارات والقنصليات. وفى حالة من الذعر تجمع الأهالى فى مراكز البوليس. وزود البوليس فرقا متخصصة من فدائيين ومخبرين، للقيام بعمليات استجواب واسعة. بدأت باستجواب العاملين بمعسكر الرحلات، والكوخ الذى وسط الغابة، والمطاعم المنتشرة بطول الطريق.. إن ثلاث دول وجدت نفسها فجأة على أهبة الاستعداد. وبقلق شديد وضعت شركة الماس مراسلاتها تحت الرقابة الدقيقة متسائلة: من أين سيتم طلب الفدية ؟ ومن ؟ ولماذا ؟

مر الليل بطوله دون أن يحمل أية إجابات، ولكن فى اليوم التالى اكتشفت طائرة استطلاع تابعة للقوات الجيش النمساوى، على بعد ٦٠٠ متر من الطريق، بقعة بيضاء تحت أشجار كثيفة. اقتربت الطائرة وبعد ثلاثة

أو أربعة منعطفات كان الأوتوبيس الأبيض التابع لنفس شركة النقل المعروفة، خاليا من الأطفال والسائق والمرشد الشاب.

وعلى مايبدو فإن هناك أشياء بقيت فى أماكنها، مثل معاطف الأطفال والحافظة الجلدية التى تحمل الأوراق الرسمية الخاصة بالأطفال، وكذلك الأوراق الرسمية الخاصة بالسائق لكن لا آثار لاستخدام العنف.

وبعد التفتيش تبين أن الأوتوبيس ترك فى حالة من الذعر والفزع، وظل أحد أبوابه مفتوحا. كما تم العثور على بعض الملابس ملقاة وسط الممر الأصلى للسيارة.

وعلى الطريق رفع رجال البوليس علامات واضحة لسيارتى نقل كبيرتين، كانتا بالقرب من أوتوبيس الأطفال. وهذا يعنى أن السيارتين جاءتا حتى هذا الشجر، وهذا يؤكد أن لها يدا فى هذه العملية. وإلا لأبلغوا البوليس بمكان الأوتوبيس.. وهنا بدأ الأمر يتضح باشتراك السيارتين فى عملية اختطاف الأطفال. فلابد أن العملية منظمة بدقة لاختطاف ستة وعشرين طفلا دفعة واحدة.

وكانت عملية المحافظة على حياة وسلامة هذا العدد من الأطفال، عملية شاقة وحساسة، لايشعر بها إلا مدرس أو معلم أو مربى.. فستة وعشرون طفلا دفعة واحدة، شئ يدعو حقا للمناقشة والاحتجاج والدموع. كما أن عملية حمل هؤلاء الأطفال داخل سيارة نقل شئ يدعو حقا للشك. وهنا فقط رأى الانتربول أن الأمر لا يتعلق بخطف سياسى.. فلم تسجل منذ ٢٤ ساعة أية محاولة للمطالبة بالفدية وأن هذه العملية لاتتبع أية عصابة من العصابات المتخصصة المعروفة التى

لا تخاطر باختطاف ستة وعشرين طفلا مرة واحدة ، لأنه فى هذه الحالة يكفى طفل واحد ليؤدى الغرض .

كما أن هذه العصابات لاتهمل الأوراق الرسمية الخاصة ، إذ انها تعتبر الدليل الوحيد على أنهم يحتجزون الرهائن . فيطالبون بالفدية . لذلك كان الانتربول على ثقة من أن الأمر يعنى شخصا بمفرده ، أو اثنين أو ثلاثة على الأكثر !

انطلق التحقيق مستندا على فكرة محددة ، هى أن الاختطاف تم عن طريق أشخاص مقربين نسبيا من الأطفال ، أو على الأقل يعرفون المنطقة جيدا . أو ربما كان هذا التآمر تم بمعرفة السائق ، فكان المختطفون على علم بأمر تلك الرحلة منذ فترة طويلة . لذلك كان لابد أن ينصب البحث والتحقيق من الجانب السويسرى حيث نظمت وبدأت الرحلة .

كان هذا الاستنتاج هو أحسن ما وصلت إليه التحريات ، خاصة عندما استند على أقوال أحد الشهود غير المتوقعين . فقد تقدم شاب خجول – صاحب مكتبة إلى البوليس السويسرى ، يبلغه أن هناك من استعار منه كتابا منذ فترة . . يحكى قصة جريمة خيالية ، تقوم بها مجموعة من الشبان ، لاختطاف أوتوبيس يحمل تسعة من الأطفال والسائق ، ومن سجل أسماء المستعيرين توصل البوليس إلى العنوان . فالعملية ليست صدفة بحتة . وعلى هذا الأثر انطلق رجال البوليس على الفور .

كانت الإعارة للفتاة إيطالية شابة ، ولم يكن الكتاب فى حوزتها لكن تم العثور عليه فى مكتبة المقاول الذى تعمل عنده ، والذى كان يجهل تماما كيف وصله هذا الكتاب الذى لم يقرأه وربما قرأه ابنه الشاب ، فقد ظل الكتاب يتنقل من المكتبة ليستقر فى نهاية الأمر فى حجرة الصالون ، ودهش الأب عندما علم أن كل هذا التحقيق يدور حول كتاب بالس مشئوم ، ولم يتخيل أبدا أن يكون ابنه ضمن عصابة اختطاف . وأى أب يمكن أن يتخيل هذا ؟ ! ولكن لكى يبعد الابن ، الذى يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، الشبهة عن نفسه ، استقل سيارته منذ عدة أيام ليعسكر فى يوغوسلافيا ، وهذا يعنى أنه فى طريقه قد مر بالنمسا أما عملية اللحاق به فكانت مستحيلة وقد فات أوانها .

بدأت نبرة وسائل الإعلام فى بلجيكا والنمسا وسويسرا ترتفع فى اليوم التالى

تصميم
شريف رضا

فقد تم نشر صور الأوتوبيس الأبيض وسط الشجر ، وأفردت صفحات كاملة تحمل صور الأطفال . وتصريحات وتوسلات الأهالى الذين خيم عليهم الليل لثانية مرة ، وهم غارقون فى آلامهم وأحزانهم .

وفى نفس تلك الليلة ، وفى منزل يقع بالقرب من الطريق العام . استغرق عامل بالسكة الحديد فى نوم عميق بعد ان أغلق نوافذ بيته كلها بسبب انتشار البعوض . . لكنه من شدة الحرارة ترك نافذة حجرته مفتوحة وفى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء استيقظ فزعا على ضوضاء وصوت وقع خطوات كثيرة تملأ الحديقة أحس الرجل أنه محاصر داخل البيت ، وعندما أمسك ببندقية الصيد كانت الطرقات قد توالت على الباب .

وكان العامل الشهم ، مثل باقى الناس ، على علم بتطورات الموقف . فقد رأى طيلة اليوم رجال البوليس وهم يشقون الطرق بحثا فى كل شبر وفتح الرجل الباب ، وبكل حذر وتحت ضوء القمر لمح رجلا عاريا تقريبا ، مغطى بالأتربة والرمال ، وقد التفت حوله مجموعة من الأطفال فى حالة رعب وفزع .

وبعد حوالى ربع ساعة تقريبا ، جاءت سيارة البوليس ، تقف أمام منزل العامل ، تتبعها سيارة أخرى ، تحمل رجالا مسلحين ، وتتبعها ثلاث سيارات إسعاف .

كان المشهد غريبا حقا ومؤثرا . ظهر العامل بملابسه الداخلية ممسكا سلاحه وأخذت زوجته وهى بملابس النوم ، تسق الأطفال الأبرياء الذين جلسوا فى هدوء . وعلى الفور تناوب طبيب وثلاث ممرضات رعايتهم والاطمئنان عليهم . أما سائق الأوتوبيس فقد قام باستجوابه على الفور ، ثلاثة من المخبرين ، كانوا يرتدون الملابس المدنية .

حدث هذا أمس صباحا فى حوالى الساعة التاسعة والنصف عندما وجد السائق نفسه مضطرا فجأة للتوقف . فكان الطريق مسدودا بسيارتى نقل ، وثلاثة أو أربعة رجال مسلحين يصوبون بنادقهم ناحية السائق . وصعد واحد منهم الى الاوتوبيس ليأمر السائق بالتوجه إلى طريق فى اتجاه الشجر . وكان الرجال المسلحون يغطون وجوههم بأوشحة لا تحمل إلا فتحات للعينين فقط . أخذ الأطفال يصرخون من شدة الفزع طلبا للنجدة . وعند الشجر تم إخلاء الأوتوبيس . ليركب الأطفال إحدى سيارتى النقل ، التى سارت بهم حوالى عشرين دقيقة ، ليدخلوا بعدها سيارة نقل قديمة مدفونة كلية تحت الأرض .

سيارة لا منافذ لها سوى فتحة واحدة عند السقف . وكان السائق اول من نزل من تلك الفتحة وتبعه بقية الأطفال ووجد السائق نفسه محاطا بالعلب المحفوظة وصفائح المياه وبعض المراتب . ثم وضع المختطفون لوحة ضخمة من الحديد فوق الفتحة وقاموا بدفن السيارة النقل القديمة وتغطيتها كلية بالأتربة والرمال وفى الداخل وجد السائق مصباحا كهربائيا ، وأخذ يعمل بنصيحة على تهدئة الأطفال . لتمر الليلة الأولى ثقيلة بطيئة لا تنتهى . قام خلالها بتوزيع بعض الطعام على الأطفال . . ولكن عندما بدأ الجو يبعث على الاختناق . وشعر الأطفال بصعوبة التنفس . فكر السائق بسرعة . وكدس المراتب كلها فى مكان واحد ، حتى يستطيع الوصول إلى الفتحة التى فى أعلى السقف . . ونجح فى رفع اللوحة المعدنية الضخمة وباستعمال العلب المحفوظة أخذ يبعد الرمال والأتربة . وتسلل أصغر الأطفال من الفتحة وقام بدفع الرمال . وفى حوالى الساعة العاشرة والنصف نجح السائق فى رفع اللوحة الحديدية ليخرجوا جميعا فى النهاية ، هربا من الموت خنقا .

ولم يكن رجال البوليس فى حاجة إلى أكثر من خمسة عشر يوما لإلقاء القبض على ابن المقاول والذين من جيرانه الشبان . وصديق تساوى يبلغ الثالثة والعشرين من عمره . وهو الذى حصل على سيارتى النقل من الشركة التى يملكها أبوه .

قرأ ابن المقاول كتابا غبيا أحمق ، كما قرأه صاحب المكتبة الذى لم يكن أحمق لأن مهنته تتطلب منه أن يقرأ كل الكتب حتى التافه منها . . وبعد البحث والتفتيش داخل سيارة الشاب التساوى تم العثور على مسودة للعطالبة بفدية بلغت حوالى مائة مليون فرنك بلجيكى . وكانت عصابة المختطفين تنوى العودة إلى سويسرا بحثا عن عنوان الشركة الجديرة بدفع مبلغ كهذا . . معتقدين أن الأطفال والسائق يمكن أن يبقوا سالمين فى مخبئهم تحت الأرض لعدة أسابيع . وهنا قال النائب العام بتبرارة : « هاهم أولاء أربعة شبان حالمين . عطرين . أغبياء . شرسين .